

التأكيد على حتمية الخروج من عصر الجليد إلى فضاء الحياة
الواسع، عبر «الجسر» الذي بناه الشاعر من ذاته:

يعبرون الجسر في الصبح خفافا
أضلعي امتدّت لهم جسرا وطيداً^(١).

وإذا كانت رؤيا الانبعاث تتردّد في نهر الرماد ما بين الشكّ
واليقين، فإنّ معالم الشكّ تمّحي نهائياً وتراجع من دائرة الضوء،
لتخلي مكانها للفرح القادم، مع الناي والريح:

عدت إليكم شاعراً في فمه بشارة
يقول ما يقول
بنفطرة تحسّ ما في رجم الفصول
تراه قبل أن يولد في الفصول^(٢).

إلا أنّ هذه «البشارة» التي زفّها الشاعر لشعبه مرهصاً بيقين
«القيامة» ما لبثت أن تداعت تحت وطأة صلابة الواقع وعدم تقبّله
للتغيير، الأمر الذي أجهض الرؤيا وأظهر أنّ الانبعاث كاذب
ومشوّه. فكانت مأساة «لعازر» في بيدار الجوع عودةً على الخطى التي
قطعها، فيتلاشى إيمانه وتضعف عزيمته ويكون عصر النحيب
والفتاهة:

الجهاميرُ التي يعلّقها دولابُ ناز
من أنا حتى أرَدَ النارَ عنها والدّوارُ؟!^(٣)

إنّ «لعازر» القائم من بين الأموات، ليس أملّ الشاعر: هو
ميت - حيّ، وهو رمز للحياة الزائفة والانبعاث الكاذب:

امسحي الميت الذي ما برحت
تخضّر فيه لحيّة، فخذ، وأمعاء تطول^(٤).

وتنسحب ملامح الأسي والخيبة على شعر حاوي الذي تلا
«لعازر». وأكثر ما تظهر في قصيدة «الأمّ الحزينة» التي كتبت بعد
هزيمة ١٩٦٧:

ما لثقل العار!
هل مجلّته وحدي
وهل وحدي - ترى - كفنّت وجهي بالرماد
الجنّات التي يحملها الصبح
تدوي في جنازات السهاد
الجباه انطفأت وانطفأ السيف

(١) الديوان، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) الديوان، ص ٢٧١.

(٣) الديوان، ص ٣٢٠.

(٤) الديوان، ص ٣٣٥.

تجربة المدينة في شعر خليل حاوي

ميشال أبو نجم (*)

ثمة ترابط جدليّ يبدو بينا بين الواقع الحضاريّ والرؤيا الشعرية
في تجربة خليل حاوي. فالواقع الحضاريّ يمدّ الرؤيا بمادتها الخام
وعناصرها الأولية، والرؤيا الشعرية تحطّ للواقع بمجالات تفتح
وتكوّن وصيرورة. فلا يمكن فهم الشعر الكليّ ما لم تفهم هذه
العلاقة الأساسية.

غير أنّ هذا لا يعني أنّ على الشعر أن يعكس بآلية صور
التحوّلات والأحداث التي تطفو على سطح الحياة اليومية: فالرؤيا
الشعرية تسلطّ وهجها على الواقع، مُسقطّة ما فيه من زوائد،
ونافذة من خلال مظاهره المتلونة إلى أعماق كيانه حيث ترُكّن أصول
المشكلات ويزدور التغيير الحقيقية. ولن يكون للشعر العربي الحديث
أثر فاعل، ما لم يتخلّ عن دور ترجيع الأصداء والاكتفاء بغناء
الواقع.

وعبر تنقلنا مع خليل حاوي في قصيده، برز الترابط الجدليّ
وبرزت تلك المرحلة. غير أنّ هناك ثوابت في شعره، هي المصايح
التي تضيء جوانية الرؤيا وجوانبها. كان الانبعاث الحضاريّ هو همّ
حاوي، وهذا الانبعاث لن يحصل إلاّ بالعودة إلى الفطرة والبكارة،
ولن يحصل إلاّ بالولادة الجديدة التي هي صورة للولادة الأولى.
وكلّمها كشف الشاعر، رؤيويّاً، أنّ الانبعاث حاصل، اقتربت الرؤيا
من الإشراق الصوفيّ وغدت بشارة بالحياة الجديدة. من هذا المنطلق
علينا أن نفهم ديوانه الأولين نهر الرماد والناي والريح، وهما يؤلّفان
المرحلة الأولى من شعره.

في نهر الرماد كان الشاعر يحاول التفتيش عن يقينه، ويحاول
تلمّس مكانم الداء والخصب في الأرض الخراب. وكانت تتنازعه
تيارات العبث والشكّ والأمل، فأنتهى من تجربته بالخلوص إلى
(٤)

(*) نقدّم هنا خلاصة الأفكار التي طرحها ميشال أبو نجم في رسالته الجامعية
بإشراف د. رُي سابا حبيب في الجامعة اللبنانية.

وأصواء البروج.

ليس في الأفق سوى دخنة فحم
من محيط خليج^(١).

وفي «ضباب وبروق»، التي نشرها الشاعر في آذار ١٩٧٢، تنوع لأصداء الهزيمة في نفس الشاعر، وغوص إلى أعماقها. ففي حين كان التصميم هو نبرته في «الجسر»:

اخوسي يا بومة تفرغُ صدري
بومة التاريخ مَيَّ ما تريد؟^(٢)

نجد أن هذه النبرة تتلاشى ويشعر حاوي بطعم الهزيمة ويبعث سنوات الصراع؛ فالعمر قد مرَّ، وخَبَتِ الرؤيا، والواقعُ ازداد تحجراً:

أفرخُ البومَ / ومات السرُّ /
في قلبي الذي اعتاد الهزيمة^(٣)

.....
أنت يا مَنْ غَوَّرتْ/ في جوفه الرؤيا وغصَّتْ
فاستحالت جمرَةً ملتهمة/ أكلتْ أعصابه، مصَّتْ دمه
تلك رؤيا اختنقت
في الكلمة.^(٤)

لكنَّ هذه النزعة السوداوية المصحوبة بالخيبة الكبيرة ما كانت لتجثم كابوساً دائماً على صدر الشاعر. فبالرغم من كلِّ ظواهر الموت المحيط، ما فتىَّ يهد باتجاه التفتيش عن مكامن الخصب التي تنبض بالحياة تحت مظاهر الموت. فكانت قصيدة «الرعد الجريح» تعبيراً عن هذا التوق الملح، وبها أرى بداية المرحلة الثالثة في شعر حاوي:

وكفى بالجبهة السمرء/ ما ينهل من رؤيا
لها في دمتنا طعمُ اليقين
تصهر الظل الذي يغفو/ على رمل المواني
في سهيل الصاعقة.^(٥)

وتستمرُّ اللهجة النازعة باتجاه التفاؤل في قصيدة حاوي «رسالة الغفران من صالح إلى ثمود»:

وتباركت رَجْمُ التي ولَدتْ/ على ظهر الخيول
ولَدتْ وما برحتْ بتول
بطلاً يروِّي سيفه
لهبُ الشهاب
من منبعِ الشهب التي التَمَعَتْ
حروقاً في كتاب...^(٦)

* * *

يقول بيتر بخان عن خليل حاوي: «إنه شاعر له قَدٌّ وحَدٌّ»^(٧) ولقد تمثلت لي شاعريته حاوي حيناً مستمراً إلى البكارة والظفرة والعافية، ونزوعاً دائماً باتجاه البداية، حيث بالإمكان الانطلاق من جديد في البناء الحضاري. هوسُه كان الأصالة، ولعلَّ هذا الهوس هو الدافع الرئيسي الذي قَوَّلَ رؤيته للمدينة وصاغها بشكل ساقط.

الرعد الجريح بداية التوق عند حاوي إلى الخصب تحت مظاهر الموت.

وللقوع على هذه الأصالة مارس حاوي فعل التعرّي من كل رموز الزيف والانحطاط وتكبَّ همَّ الغوص على نبضات الحياة الباقية في جسم شعبه وأطلق رؤياه في فضاء الانبعاث. إلا أنَّ الانبعاث الذي لمح به بقي على صعيد الرؤيا، فاختنق الصوت الصادح ليغدو غوصاً في أعماق المساء. ومن جديد يعاود الصوت سيرته الأولى، فالانبعاث واجب الوجود في سنن الشعوب ولا يتفجر إلا وسط الظلمة. وحاوي شاعرٌ باحثٌ بإصرار عن مخاض الولادة الجديدة.

إنَّ همَّ الشاعر، في بلورة رؤياه وتجسيدها واقعاً قائماً، يطرح على الباحث جملةً أسئلة. فهل هذا الواقع القائم، كما نعيشه، يقدم مجالاً لافتراض انبعاث أصيل؟ وهل تغيرت، في نظر الشاعر، الظروف التي دفعته لكتابة «لعازر عام ١٩٦٢» و«الأم الحزينة»؟

لا أرى أنَّ واقع اليوم يُفسح المجال أمام رؤيا متفائلة تُرهبُ بانبعاث قريب. فلا دليل على الانبعاث غير وجوده. إلا أنَّ سبق الشعر هو في حضوره وفي تنكبه همَّ البحث وإثارة المسائل، حين تغيب النشاطات الذهنية الأخرى من فكر وفلسفة.

يبقى أنَّ خليل حاوي جعل همَّ تنقية الإنسان للوصول به إلى حالة من الصفاء الداخلي التي تبقى، وحدها، سبيلاً ممكناً لاستعادة هذا الإنسان حضوره في العالم.

(١) مجلَّة الآداب، العدد السابع، تموز ١٩٦٨، ص ٨.

(٢) الديوان، ص ١٤١.

(٣) من «ضباب وبروق»، راجع مجلَّة الآداب، العدد الثالث، آذار ١٩٧٣، ص ١٢-١٣.

(٤) من قصيدة «الرعد الجريح»، نسخة خاصة من الشاعر.

(٥) من قصيدة «رسالة الغفران من صالح إلى ثمود»، جريدة بيروت المساء، عدد ١٤، كانون الثاني، ١٩٧٥.

(٦) مجلَّة الثقافة العربية، العدد الثالث، آذار ١٩٧٥.